

14

خلافة الإنسان

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

خلافة الإنسان

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب:	خلافة الإنسان
إعداد:	مركز نون للتّأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	شباط ٢٠١١م/١٤٣٢هـ

خلافة الإنسان

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمــد للّه ربّ العالميــن والصــلاة والســلام على الرســول المصطفى محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

إنّ مــن مبادىء الإســلام الثابتة مبدأ (الخلافــة العامّة)، المرتكز على أساس الإيمان بأنّ اللّه تعالى هو المالك الحقيقيّ والوحيد للكون وما فيه من ثروات، وأنّه سبحانه وتعالى قد جعل المجتمع التوحيديّ المتناسق والمتوازي يرتكز على خطّين ربّانيّين رئيسين:

الخـطّ الأوّل: خلافــة الإنسان علــى الأرض - سنتعرّض له خلال هذا البحــث - حيث استحقّ الإنســان شرف هذه الخلافــة لأنّ الاستخلاف يعني الإحساس بالمسؤوليّة وتحمّل الأمانــة، والإنسان هو الكائن الأرضيّ المتميّز بالإحساس بالمسؤوليّــة، ولديــه القــدرة على التصــرّف في الأمانــة - الّتي يتحمّلهــا - وفقــاً لأوامر اللّه الّــذي استخلفه على الكون وائتمنــه على كلّ ما يحويه من خيرات.

الخـطّ الثانـي: شهــادة الأنبيــاء عليهم السلام ودورهــم التربــويّ والثقافيّ في هدايــة المجتمــع التوحيــديّ - سنتعرّضــ له في بحــث لاحق - الّــذي تُشكّل خلافة الإنسان فيه حجر الزاوية، ويأتي دور الأئمّة عليهم السلام عقيب الأنبياء عليهم السلام للمحافظة على رسالة الإسلام وصونها من التحريف والضياع.

أمّــا في عصر غيبة المعصــوم عليه السلام، فإنّ من يتحمّــل مسؤوليّة الإرشاد والتبليــغ الدينــيّ للمجتمــع التوحيــديّ هــم الفقهــاء والعلماء ورثــة الأنبياء والأوليــاء، بحيث يقومــون بالواجب الشرعيّ الملقى علــى عاتقهم في توجيه المجتمع وتوعيته وتثقيفه على ضوء القيم السامية للإسلام العظيم.

ولقد رسم الإسلام هدفاً عامّاً لمسار خلافة الإنسان على الأرض، يقوم على أساس اعتبار الخير والعدل والقوّة، وهو في حركة لا تتوقّف أبداً؛ لأنّها متّجهة نحو المطلق، وأيّ هدف آخر لهذا المسار سوى المطلق - الله سبحانه وتعالى - سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يُجمّد الحركة ويوقف عملية النموّ في خلافة الإنسان.

لذا على الجماعة الّتي تتحمّل مسؤوليّة أمانة الخلافة، أنْ توفّر لهذه الحركة الدائبة نحو هدفها المطلق والكبير كلّ الشروط الموضوعيّة، وتُحقّق لها مناخها اللازم، وتصوغ العلاقات الاجتماعيّة على أساس الرؤية القرآنيّة - كما سيأتي توضيحها في طيّات هذه الدراسة - للخلافة الربّانيّة.

وعلى ضوء ذلك قام مركز نون للتّأليف والترجمة باختيار هذه الدراسة - الّتي بين يدَي القارىء العزيز - من كلمات الشهيد الصدر، حيث تمّ تهذيبها وتشذيبها من بعض المكرّرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة بغية المحافظة قدر الإمكان على عبارة الشهيد، هذا إلى جانب إضافة بعض العناوين للفقرات والمواضيع، وإعادة ترتيب بعض الأبحاث المتراميّة، وجمعها في بحث واحد.

لذا تعدّ هذه الدراسة تلخيصاً لدراسة الشهيد السيّد محمّد باقر الصّدر (رضوان الله عليه)، والّتي قدّم فيها أطروحته حول بناء الدولة الإسلاميّة المعاصرة. وقد نُشرت هذه الدراسة ضمن كتاب (الإسلام يقود الحياة)، وهو من منشورات دار التعارف، بيروت - لبنان، طبع في العام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

مركز نون للتأليف والترجمة

الأهداف

١. التعـرّف إلـى مفهـوم خـطّ الخلافـة ومراحلها وأركانها وأهدافها.

٢. التعـرّف إلـى أبعـاد خلافـة الانسـان ودلالتها.

٣. التعـرّف إلـى الهـدف الإلهـيّ مـن الخلافة.

١ - خطّ الخلافة في القرآن الكريم:

إنّ الله سبحانه وتعالى شرّف الإنسان بالخلافة على الأرض، فأصبح الكائن الوحيد المتميّز بهذا الشرف من بين كلّ كائنات الكون، لذا استحقّ الإنسان أن تسجد له الملائكة، وتدين له بالطاعة كلّ قوى الكون المنظور وغير المنظور.

والخلافة الّتي تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾**[1]، ليست استخلافاً لشخص آدم عليه السلام بل للجنس البشريّ كلّه؛ لأنّ من يُفسد في الأرض ويسفك الدماء - وفقاً لمخاوف

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الملائكـة - ليس آدم بالذّات بل الآدميّة والإنسانيّة على امتدادها التأريخيّ.

فالخلافة إذاً، قد أُعطيت للإنسانيّة ككلّ على الأرض كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾**[1] وما نبيّ الله آدم عليه السلام سوى المثل الأوّل بوصفه الإنسان الأوّل الّذي تسلّم هذه الخلافة، وحظي بهذا الشرف الربّانيّ فسجدت له الملائكة ودانت له قوى الأرض.

وكما تحدّث القرآن الكريم عن عمليّة الاستخلاف من جانب الله تعالى، كذلك تحدّث عن تحمّل الإنسان لأعباء هذه الخلافة بوصفها أمانة عظيمة ينوء الكون كلّه بحملها؛ قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾**[2].

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

٢ - مراحل الخلافة وأنواعها:

إنّ استخلاف الله تعالى خليفة في الأرض لا يعني استخلافه على الأرض فحسب، بل يشمل هذا الاستخلاف كلّ ما للمستخلِف سبحانه وتعالى من أمور تعود إليه، فالله تعالى هو ربّ الأرض وخيراتها، وربّ الإنسان والحيوان وكلّ دابة تنتشر في أرجاء الكون الفسيح، وهذا يعني أنّ خليفة الله في الأرض مستخلَف على كلّ هذه الأشياء.

وعلى هذا الأساس يتمّ الاستخلاف على مرحلتين:

المرحلة الأولى: استخلاف للجماعة البشريّة الصالحة ككلّ، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[1].

وهذا النصّ يتحدّث عن أموال السفهاء وينهى الجماعة عن أنْ يُسلّموها إلى السفهاء؛ أمّا الشاهد في النصّ فهو أنّه قد أضاف الأموال إلى الجماعة نفسها على الرغم من أنّها

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

أمـوال أفراد منهم؛ وذلك إشعار بأنّ الأموال في هذا الكون قد جُعلت لإقامة حياة الجماعة، وتمكينها من مواصلة حياتها الكريمـة، وتحقيق الأهداف الإلهيّة من خلافة الإنسان على الأرض، ولمّـا كان السفيه لا يصلح لتحقيـق هذه الأهداف فقد منع الله الجماعة من إطلاق يده في أمواله.

ومـن ناحيـة أخرى نُلاحـظ أنّ القـرآن الكريـم والفقه الإسلامـيّ يُطلـق على كلّ الثـروات الطبيعيّـة الّتي تحصل عليها الجماعة المسلمة من الكفّار اسم (**الفيء**)، ويعتبرها (**ملكيّـة عامّة**)[1]. والفـيء كلمة تدلّ على إعادة الشيء إلى أصله، وهذا يعني أنّ هذه الثروات كلّها في الأصل للجماعة، وأنّ الاستخلاف من الله تعالى استخلاف للجماعة.

ولهـذا فـإنّ الجماعـة ككلّ - بحكم هـذا الاستخلاف - مسؤولة أمام الله تعالى، ومسؤوليّتها تُحدّدها الآية الكريمة:

﴿اللهُ الَّـذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّـمَاء مَاء

(١) هذا النوع الأوّل من أنواع الاستخلاف، أمّا النوع الثاني فهو (الملكيّة الخاصّة) للأفراد في المجتمع الإسلاميّ كما سيأتي بيانه.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ... وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

فإنّ هذا النصّ القرآنيّ بعد أنْ يستعرض ما استخلف اللّه عليه الإنسان من ثروات الكون، وطاقاته ونعمه الموفورة، أشار إلى لونين من الانحراف:

الأوّل: الظلم؛ ويعني سوء التوزيع وعدم توفير هذه النعم للأفراد والجماعة على السواء، بما يُعتبر ظلم بعض أفراد الجماعة لبعضهم الآخر، لذا لا بُدّ للجماعة ككلّ أنْ تتحمّل مسؤوليّاتها بين يدي المستخلِف سبحانه وتعالى، وأنْ تقوم بالتوزيع العادل[2] للثروة، وبشكل لا يتعارض مع خلافتها

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) وينبغي الإشارة هنا إلى أنّ العدل الّذي قامت على أساسه مسؤوليّات الجماعة في خلافتها العامّة، هو في الواقع يُعبّر عن البعد الاجتماعيّ لمفهوم العدل الإلهيّ كأصل ثانٍ من أصول الدين يتلو التوحيد مباشرة. بمعنى أنّ التوحيد يعني اجتماعيّاً أنّ اللّه تعالى هو المالك الحقيقيّ للكون والوجود. أمّا العدل فيعني أنّ اللّه تعالى مالك الملك وحده لا يُؤثر فرداً على فرد، بل يستخلف الجماعة الصالحة على ما وفّر من نعم وثروات.

العامّة وحقّها ككلّ فيما خلقه اللّه من ثروات ونِعَم.

الثاني: كفران النعمة؛ أي تقصير الجماعة في استثمار ما حباها اللّه به من طاقات الكون وخيراته المتنوّعة، بما يُعتبر ذلك ظلم الجماعة نفسها، الأمر الّذي يتطلّب تحمّل الجماعة لمسؤوليّاتها في إقامة العدل وتنمية الثروة من خلال بذل مجمل طاقاتها في استثمار الكون وإعمار الأرض.

- **المرحلة الثانية: استخلاف الأفراد**؛ الّذي يتّخذ من الناحية الفقهيّة والقانونيّة شكل (**الملكيّة الخاصّة**). والاستخلاف هنا من الجماعة للفرد، ولهذا أضافت الآية الكريمة - الآنفة الذكر[1] - أموال الأفراد إلى الجماعة.

وعلى هذا الأساس لا يُمكن أنْ تُقرّ أيّ ملكيّة خاصّة تتعارض مع خلافة الجماعة وحقّها ككلّ في الثروة والنعم الإلهيّة.

وما دامت الملكيّة الخاصّة استخلافاً للفرد من قبل

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

الجماعة فمن الطبيعيّ أنّ يكون الفرد مسؤولاً أمام الجماعة عن تصرّفاته في ماله، وانسجامها مع مسؤوليّاتها أمام الله تعالى ومتطلّبات خلافتها العامّة.

ومن الطبيعيّ أنّ يكون من حقّ الممثّل الشرعيّ للجماعة أنّ ينتزع من الفرد ملكيّته الخاصّة إذا جعل منها أداة للإضرار بالجماعة والتعدّي على الآخرين، كما أمر رسول الله ﷺ أنّ يُقلع عذق شجرة سمرة بن جندب الّذي طريقه إليها في جوف منزل رجل من الأنصار، كان يسلكه سمرة بن جندب دون إذن الأنصاريّ، ولمّا شكاه الأنصاريّ لدى رسول الله ﷺ رفض سمرة أنّ يقلع ذلك العذق، فأمر رسول الله ﷺ بقلعه؛ لأنّ فيه ضرراً على مؤمن، وهو الأنصاريّ، وأطلق الرسول ﷺ القاعدة الإسلاميّة المشهورة: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

٣ - شموليّة مفهوم الخلافة للحكم والسياسة:

بناء على ما سبق، يتّضح لدينا أنّ إدارة الحكم والسياسة بين النّاس متفرّعة من جعل الخلافة للإنسان، كما يُلاحظ في الآية الكريمة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[1].

ولمّا كانت الجماعة البشريّة ـ متمثّلة في النبيّ آدم عليه السلام هي الّتي مُنحت هذه الخلافة فهي إذاً المكلّفة برعاية الكون، وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشريّة في الطريق المرسوم للخلافة الربّانيّة.

وهذا يُعطي مفهوم الإسلام الأساس عن الخلافة، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى أناب الجماعة البشريّة ـ بوصفها خليفة الله تعالى ـ في الحكم وقيادة الكون وإعماره اجتماعيّاً وطبيعيّاً.

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

٤ - الركائز العامّة للخلافة:

إنّ عمليّة الاستخلاف الربّانيّ للجماعة على الأرض بهذا المفهوم الواسع - الّذي تقدّم ذكره - يقتضي أن يكون هناك ركائز عامّة للخلافة:

أوّلاً: انتماء الجماعة البشريّة إلى محور واحد وهو المستخلِف؛ أي الله سبحانه وتعالى بدلاً عن كلّ الانتماءات الأخرى، والإيمان بسيّد واحد ومالك واحد للكون، وهذا هو التوحيد الخالص الّذي قام على أساسه الإسلام، وحملت لواءه كلّ ثورات الأنبياء عليهم السلام تحت شعار «**لا إله إلا الله**».

قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[2].

ثانياً: إقامة العلاقات الاجتماعيّة على أساس العبوديّة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

المخلصة لله، وتحرير الإنسان من عبوديّة الأسماء الّتي تُمثّل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا﴾[1].

ثالثاً: تجسيد روح الأخوّة العامّة في كلّ العلاقات الاجتماعيّة بعد محو ألوان الاستغلال والتسلّط، فما دام الله سبحانه وتعالى واحد ولا سيادة إلّا له والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا إخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية والحقوق كأسنان المشط على ما عبّر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانيّة ولا يقوم التفاضل على مقاييس الكرامة عند الله تعالى إلا على أساس العمل الصالح تقوى أو علماً أو جهاداً، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[2].

رابعاً: إنّ الخلافة استئمان ولهذا عبّر القرآن الكريم

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

عنها بالأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ...﴾[1]. والأمانة تفترض المسؤوليّة والإحساس بالواجب، إذ بدون إدراك الإنسان أنّه مسؤول لا يُمكن أنْ ينهض بأعباء الأمانة، أو يُختار لممارسة دور الخلافة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[2].

٥ - أبعاد مسؤوليّة خلافة الإنسان ودلالاتها:

تُعتبر مسؤوليّة الإنسان في تحمّل أمانة الاستخلاف علاقة ذات حدَّين:

أوّلاً: من ناحية تعني الارتباط والتقيّد؛ فالجماعة البشريّة التي تتحمّل مسؤوليّة الخلافة على الأرض، إنّما تُمارس هذا الدور بوصفها خليفة للّه. ولهذا فهي غير مخوّلة بأنْ تحكم بهواها وباجتهادها المنفصل عن توجيه اللّه سبحانه وتعالى؛ لأنّ هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف، بالتّالي لا بُدَّ أنْ تحكم بالحقّ وتؤدّي إلى اللّه تعالى أمانته

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده.

وعلى هذا الأساس تتميّز خلافة الجماعة بمفهومها الإسلاميّ عن حكم الجماعة في الأنظمة الديمقراطيّة الغربيّة، فالجماعة في هذه الأنظمة هي صاحبة السيادة، ولا تنوب عن الله في ممارستها، وبالتّالي هي ليست مسؤولة أمام أحد، وغير ملزمة بشيء حتّى لو اتّفقت على شيء مخالف لمصلحتها وكرامتها كلّيّاً أو جزئيّاً على حدٍّ سواء. وعلى العكس من ذلك حكم الجماعة القائم على أساس الاستخلاف، فإنّ الجماعة تكون مسؤولة أمام الله تعالى، وملزمة بتطبيق الحقّ والعدل، ورفض الظلم والطغيان، وليست مخيّرة بين هذا وذاك.

حتى أنّ القرآن الكريم يُسمّي الجماعة التي تقبل بالظلم وتستسيغ السكوت عن الطغيان بأنّها ظالمة لنفسها ويعتبرها مسؤولة عن هذا الظلم ومطالبة برفضه بأيّ شكل من الأشكال ولو بالهجرة والانفصال إذا تعذّر التعبير، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ**

كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[1].

ثانياً: تعني المسؤوليّة من ناحية أخرى أنّ الإنسان كائنٌ حرٌّ، إذ بدون الاختيار والحريّة لا معنى للمسؤوليّة. ومن أجل ذلك كان بالإمكان أنْ يُستنتج من جعل الله له خليفةً على الأرضِ، أنّه يجعل الكائن الحرّ المختار، الّذي بإمكانه أنْ يُصلح في الأرض، وبإمكانه أنْ يُفسد أيضاً، وبإرادته واختياره يُحدّد ما يُحقّقه من هذه الإمكانات، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

وأكبر الظنّ أنّ هذه الحقيقة هي التي أثارت في نفوس الملائكة المخاوف من مصير هذه الخلافة وإمكانية انحرافها عن الطريق السوي إلى طريق الفساد وسفك الدماء لأنّ صلاح المسيرة البشريّة لمّا كان مرتبطاً بإرادة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.

هــذا الإنسان الخليفة ولــم يكن مضموناً بقانــون قاهر كما هي الحالة فــي كلّ مجالات الطبيعة، فمــن المتوقّع أن تجد إمكانيّــة الإفساد والشر مجــالاً لها في الممارســة البشريّة علــى أشكالهــا المختلفــة، وكأنّ الملائكة هالهــم أن توجد لأوّل مرّة طاقة محايدة يتعادل فيها الخير والشر ولا تضبط وفقــاً للقوانيــن الطبيعيّة والكونيّة الصارمة الّتي تسيّر الكون بالحكمــة والتدبيــر، وفضّلوا علــى ذلك الكائــن الّذي يولد ناجــزاً مصمّمــاً لا فــراغ في سلوكــه تتحكّم فيــه باستمرار قوانين الكون كما تتحكّم في الظواهر الطبيعيّة.

٦ - خلافة الإنسان وهاجس الملائكة:

إنّ كــون إحدى جوانــب مسؤوليّة خلافــة الإنسان اعتبار الإنســان كائنــاً حرّاً مختاراً - كما تبيّــن لنا فيما سبق - هو أكبر الظنّ الحقيقة الّتي أثارت في نفوس الملائكة هواجس ومخاوف من مصير هذه الخلافــة، وإمكانيّة انحرافها عن الطريق السويّ إلى طريق الفساد وسفك الدماء؛ لأنّ صلاح

المسيــرة البشريّــة لمّــا كان مرتبطاً بــإرادة هــذا الإنسان الخليفــة، ولــم يكن مضمونــاً بقانون قاهر كمــا هي الحالة فــي كلّ ظواهر القوانين الطبيعيّــة والكونيّة الصارمة، الّتي تُسيّر الكون بالحكمة والتدبّر، فمن المتوقّع أنْ تجد إمكانية الإفساد والشرّ مجالاً لها في الممارسة البشريّة على أشكالها المختلفة.

ومــن هنا قــدّم الملائكــة أنفسهــم كبديل عــن الخليفة الجديد: ﴿... **قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[1]، ولكــن فاتهم أنّ الكائن الحرّ الّذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض لا تعني حريّتــه إهمــال الله تعالى لــه، بل هو تغيير لشــكل الرعاية، فبــدلاً عن الرعايــة من خلال قانون طبيعــيّ لا يتخلّف. كما تُرعــى حركات الكواكب ومسيــرة كلّ ذرّة في الكون - يتولّى الله سبحانه وتعالى تربية هذا الخليفة وتعليمه: ﴿... **قَالَ إِنِّي**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا...﴾[1]، وذلك لكي يصنع الإنسان قدره ومصيره ويُنمّي وجوده على ضوء هدى وكتاب منير.

ومن هنا علّم الله تعالى النبيّ عليه السلام آدمَ الأسماء كلّها، وأثبت للملائكة من خلال المقارنة بينه وبينهم: ﴿... وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[2] أنّ هذا الكائن - وهو الإنسان - الحرّ الّذي اجتباه للخلافة قابل للتعليم والتنمية الربّانية، وأنّ الله تعالى قد وضع له قانون تكامله من خلال خطّ آخر - لم تلحظه الملائكة - يجب أنْ يسير إلى جانب

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠ - ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١ - ٣٣.

خطّ الخلافة، وهو خطّ الشهادة[1] الّذي يُمثّل القيادة الربّانيّة والتوجيه الربّانيّ على الأرض، ويحمل إلى الناس هدى الله، ويعمل من أجل تحصينهم من الانحراف، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

(١) سيأتي تفصيل خط الشهادة لاحقاً.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

٧ - أهداف الخلافة بين الإسلام والجاهليّة:

حينما وضع الإسلامُ مبدأ خلافة الإنسان على الأرض لم يضعها مجرّدة من أهدافها الصالحة، بل وضع تصوّراً وقيماً لهذه الأهداف، بحيث أدّت إلى انقلاب عظيم على التصوّرات والمفاهيم حول ملكيّة الإنسان للثروة في عصر الجاهليّة، الأمر الّذي ترتّب عليه انقلاب شامل لكلّ الوسائل والأساليب في تملّك الثروة والسيطرة عليها فضلاً عن استثمارها وتنميتها.

وبعبارة أخرى: إنّ المجتمعات الجاهليّة لا تنظر إلى الحياة إلّا من خلال شوطها القصير الّذي ينتهي بالموت، ولا تُدرك ذاتَها ومتَعَها إلّا من خلال إشباع ما لدى الإنسان من غرائز وشهوات، وهي على هذا الأساس تجد في المال بوصفه مالاً، وفي تجميعه وادّخاره والتنافس فيه الهدف الطبيعيّ الّذي يضمن للإنسان القدرة على امتصاص أكبر قدر ممكن

من إمكانات الحياة المادّيّة والخلود (النسبيّ) فيها.

وكان هذا التصوّر للحياة ولدور المال فيها الأساس لكلّ ما زخرت به المجتمعات الجاهليّة من محاولات الاستزادة والتكاثر، وألوان التناقض والاستغلال؛ لأنّ مسرح الحياة المادّيّة محدود، والأوامر معدودة، واللاعبون كثيرون، وصاحب الحظّ السعيد من يحصل على أكبر عدد من تلك الأوراق ولو على حساب الآخرين[1].

ولإزالة هذا التصوّر والمفهوم الجاهليّ - بثوبيه القديم والحديث - واستئصال جذوره النفسيّة من الإنسان، قام الإسلام بشجب المال وتجميعه، وادّخاره والتكاثر فيه كهدف، ونفي أيّ دور له في تخليد الإنسان أو منحه وجوداً حقيقيّاً أكبر.

يُقدّم لنا القرآن الكريم صوراً عديدة ضمن عدد من

(١) وما نشهده اليوم من قيام أميركا وربيبتها إسرائيل بالحروب والدمار واحتلال أراضي الشعوب الأخرى، والسيطرة على ثرواتها وامتصاصها، ما هو إلّا وجه من وجوه الجاهليّة بثوبها الحديث الّتي تعيش هذه الحياة المادّيّة الضيّقة والمظلمة.

الآيات الكريمة، منها قوله تعالى:

- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[1].

- ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ...﴾[2].

- ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

٨ - قيمة الإنسان

ولم يقتصر الإسلام على شجب أهداف الجاهليّة وقيمها عن الحياة - كما تبيّن لنا من خلال الآيات السابقة - بل وضع بدلاً عنها الهدف الّذي يجب أنّ تسير الإنسانيّة في اتّجاهه.

قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

(١) سورة الهمزة، الآيات: ١ - ٧.

(٢) سورة التكاثر، الآيتان: ١ - ٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[1].

في هاتين الآيتين الكريمتين وضع الله عزّ وجلّ بدلاً عن المثل والقيم بالمقاييس الجاهليّة - ألا وهي كثرة المال والثروة - مقياس (**الأحسن عملاً**) كمثل أعلى وهدف أوّليّ، وحثّ الناس على التنافس فيما بينهم ضمن هذا المقياس الربّانيّ من خلال التسابق نحو العمل الصالح والأحسن، قال تعالى: **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[2].

ولكي يقوم هذا الهدف الجديد على أساس واقعيّ ومتين، أعطى الإسلام نظرة جديدة للحياة الدنيا، فربطها بعالم غير منظور حسيّاً وهو عالم الحقّ، عالم الآخرة، حيث تخلد فيه الأعمال الصالحة والحسنة وليس كثرة المال واكتناز الثروة، بل جعل المولى عزّ وجلّ إنفاق المال والثروة في سبيله وإعلاء كلمته تجارة مربحة، فضلاً عن قابليّتها للنموّ

---

(١) سورة تبارك، الآيتان: ١ - ٢.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

وإثراء روح الإنسان في الدنيا والآخرة:

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١).

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

الخلاصة:

أوّلاً: شـرّف الله سبحانه وتعالـى الإنسان بخلافته على الأرض فـي كلّ شيء، لذا تُعتبـر الخلافة أحـد أركان بناء المجتمع التوحيديّ.

ثانيـاً: تمـرّ خلافـة الإنســان علـى الأرض بمرحلتين، الأولى مرحلــة استخلاف الجماعة البشريّة الصالحة ككلّ، أمّا المرحلــة الثانية فهي مرحلة استخــلاف الأفراد الّذين يستمدّون خلافتهم من خلافة الأمّة ككلّ.

ثالثاً: تستند خلافة الإنسان على الأرض إلى عدّة ركائز، منهـا انتماء البشريّة إلى محـور واحد وهو المستخلِف، الله سبحانه وتعالــى، الأمر الّذي ينعكس إيجاباً على تعزيز روح الأخوّة فــي العلاقات الاجتماعيّة، ويُساعد على تحمّل أمانة الخلافة.

الفهرس